اسم الدرس : تفسير سورة البلد

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم
سنتكلم اليوم بإذن الله -عز وجل- عن سورة من سور جزء عمَّ، نسأل الله الإعانة، وربما نتمكن من إنهاء السور المتبقية في جزء عم، أو نعود مجددًا للسياق الذي كنا نسير فيه بعد سورة يس.

اليوم بإذن الله –عز وجل– **سنتناول سورة البلد،** سورة البلد سورة مكية، بعضهم نقل الإجماع على أن السورة مكية والخلاف فيها ضعيف جدًا، فالراجح إن شاء الله أنها مكية. نزلت أيضًا في أجواء الاستضعاف في مكة، تُبيِّن حقائق يعيشها الإنسان وكيف يتعامل الإنسان مع هذه الحقائق.

الإنسان في هذه الحياة قد يمر بظروف من الابتلاءات والصعاب، أو بالتعبير القرآني الذي جاء في السورة: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ {البلد: ٤}

الإنسان يمرُّ أو يكابد صعابًا في هذه الحياة، هذه الابتلاءات التي تنزل بالإنسان يكون للإنسان ردود فعل تجاهها، مثلاً لو أن إنسانًا ابتُلي بمرض أو بفقر أو بفقد إنسان عزيز عليه، من الطبيعي أن هذا الإنسان سيكون له رد فعل، رد الفعل هذا قد يكون محكومًا بالشرع، فيحمد الله –عز وجل– حتى لو بكى لكن يحمد الله –عز وجل– ولا يقول إلا ما يُرضي الملك سبحانه وتعالى، أو إن كان رد الفعل هذا غير محكوم بالشرع، فقد يتصرف الإنسان تصرفات طائشة، ويستجلب بها لنفسه السيئات والعياذ بالله. إذًا فكل مشكلة أو كبد أو ابتلاء يمر به الإنسان لابد أن يكون له رد فعل.

من رحمة الله –عز وجل– أنه لما كان المسلمون يمرون بمراحل من الابتلاءات –سواء في مكة أو في المدينة– كان القرآن ينزل ويُبيِّن لهم التعامل أو رد الفعل الأمثل، أو يضبط لهم ردود الأفعال التي حدثت غير منضبطة مع الشرع، فينزل القرآن ليضبط هذا.

القرآن لم يترك لهم ردود الأفعال لتكون بعقولهم وبأهوائهم أو بنفوسهم؛ لأن ردود الأفعال من الممكن أن تختلف حسب نفسية الإنسان، اليوم نفسيته منضبطة فردُّ فعله جيد، غدًا نفسيته ليست على ما يرام... هناك تقلبات هوائية للإنسان، فينزل الشرع لضبط ردود الأفعال.

فمن رحمة الله –سبحانه وتعالى– أنه كان ينزل القرآن مع الابتلاءات والوقائع يعالج النفس البشرية، يجعلها تتحمل هذه الابتلاءات وتجعل هذه الابتلاءات في طاعة الملك سبحانه وتعالى.

قال الله –عز وجل– عندما نقل عن الكفار قولهم: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ﴾ {الفرقان: ٣٢} أي نزل القرآن مُفرَّقًا كذلك ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ {الفرقان: ٣٢}.

إذًا فمن أهم ما يستفيده الإنسان من كتاب الملك –سبحانه وتعالى– أنه مع الوقائع المتكررة والابتلاءات المتنوعة والمواقف المختلفة يجيء القرآن ليُثبِّت الإنسان في التعامل مع هذه المواقف، فمن

هذه المواقف ومن هذه الابتلاءات أن الإنسان يمر بصعاب في حياته، كيف يتعامل معها؟ فتنزل سورة البلد تبين هذه الحقائق.

- بدأت سورة البلد بقول الله عز وجل: ﴿ لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣)﴾ {البلد: الآيات ١-٣}، هذا قسمٌ وجواب هذا القسم ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ {البلد: ٤}.

بدأت السورة بقول الملك سبحانه وتعالى: "لا أُقْسِمُ "، العلماء في التفسير مختلفون في معنى "لا أُقْسِمُ "، جمهور المفسرين على أنه قسم، وأنه ليس معنى "لا أقسم" أن الله لا يُقسم (نفي)، بل هذا قسم لكن في صورة معينة كانت معروفة عند العرب، ودليلهم: قول الملك سبحانه وتعالى لما قال: ﴿ لا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ {الواقعة: ٧٥} قال بعدها: ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ {الواقعة: ٧٦} فقالوا: ربنا قال: "فلا أقسم" وبعد ذلك قال: هذا قسم عظيم، إذًا "لا أقسم" هو قسم.

بعض العلماء قالوا: " أُقْسِمُ " لا: نافية، أي لن أقسم بهذا، وما دام لن يقسم فلماذا ذكره؟ قالوا: لشدة وضوحه لن أقسم به، كأن ربنا يقول لنا هذا الأمر عظيم ولا يحتاج إلى قسم.

وبعض العلماء قالوا: إن "لا أُقْسِمُ"، "لا": رد لكلام قالوه، مثل أن يقول لك شخص حدث كذا، وتقول له لا والله لقد حدث عكسه، فـ "لا" رد لكلام قالوه، فمثلاً إذا قال المشركون: ليس هناك يوم للقيامة ولا للبعث، فيقول الله عز وجل: لا، كلامكم خطأ، أقسم بيوم القيامة.. وقالوا: ويُقدَّر الكلام الذي قالوه، الذي قاله المشركون، على حسب سياق الآيات.

كل هذه أقوال تحاول أن تفسر كلمة "لا أُقْسِمُ ".

وقال بعض العلماء: إن "لا أُقْسِمُ " معناها لن أقسم و"لا" نافية، وقال: وكأنه حصل معنيان متعاكسان:

المعنى الأول: تعظيم ما يريد الله –عز وجل– أن يقسم عليه.

المعنى الثاني: مانع إن ربنا يقسم عليه، فحصل شبه تعارض، إن ربنا لا يريد أن يقسم ويريد أن يقسم؛ فجاء أسلوب لا أقسم يجمع بين المعنيين.

مثلاً بعض العلماء هنا قال: ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ {البلد: ١} التي هي مكة، هناك إجماع أن البلد هي مكة البلد الحرام. بعض العلماء قال: ﴿ لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢)﴾ {البلد: الآيات ١-٢} إن "حل" –كما سنتكلم عنها– أي: يستحلون عذابك، ويستحلون دمك وعِرضك، أي "وأنت حل" وأنت تُعذَّب في هذا البلد، فبعض العلماء قال معنى الآية: لا أقسم بها

وأنت تعذب فيها. أي: عندما تُعذَّب فيها لا أقسم بها، كأن ربنا يريد أن يُعظِّم البلد وفي نفس الوقت الرسول يُعذَّب في البلد، فقالوا: يحصل نوع من الإرادة وإرادة معاكسة لها فيأتي هذا الأسلوب ليجمع بينهما.

الشاهد كما قلنا – فقط لنكون ذكرنا الأقوال كلها– أن جمهور المفسرين على أن هذا قَسَم أيًّا كانت الدلالة؛ هل يَرُدُّ على شيء، أم له معنى، أو من شدة الوضوح ومن شدة الظهور لا يحتاج إلى قَسَم، مثل قول الله: ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ {القيامة: ١} كأن المعنى: أنه من شدة ظهور دلالات يوم القيامة هذا الأمر لا يحتاج إلى قسم، ولا ينكره إلا جاحد، والذي يحتاج إلى قسم لإثبات يوم القيامة هذا جاهل، هذه إحدى معاني ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ {القيامة: ١}.

﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ {البلد: ١} الشاهد أن هذا قسم، سواء تعظيم، أو الغرض تعظيم مكة، سواء هذا قسم أو ليس قسمًا الغرض الأساسي هو تعظيم هذا البلد.

﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ {البلد: ١} التي هي مكة.

﴿ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ {البلد: ٢} أنت أي: النبي صلى الله عليه وسلم.

"حلٌ بهذا البلد" معنى كلمة "حلٌّ".. حِلٌّ: مأخوذة إما من حَلال أو من حالٍّ أي مقيم. بعض العلماء أو العلماء قالوا: حِل –كلمة حِل– أصلها اللغوي يرجع إلى كلمة من اثنين: إما حل معناها مأخوذ من كلمة حلال ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ {آل عمران : ٩٣} كل الطعام كان حلاً أي: حلال.. إذًا حل جاءت في القرآن في سورة آل عمران بمعنى حلال. وبعض العلماء قالوا: حِلٌّ تكون بمعنى مقيم، أنت حِلٌّ في هذا المكان أي أنت حالٌّ ومقيمٌ في هذا المكان.

إذًا (حِلٌّ) بمعنى حلال أو بمعنى مقيم.

الذي قال بمعنى حلال، قال معنى الآية شيء من اثنين الأول//"وَأَنتَ حِلٌّ" أي: سيحلُّ لك هذا البلد، فالبلد اسمها البلد الحرام فيُحرم فيها القتال، لكن الله عز وجل أحلها للنبيّ –صلى الله عليه وسلم– ساعة من نهار أن يقاتل فيها يوم الفتح فقال: معناها ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ * وَأَنتَ حِلٌّ﴾ {البلد: الآيات ١–٢} أي: سيحلُّ لك هذا البلد، بُشرى بالتمكين لك في هذا البلد وأن هذا كلام عن المستقبل أن الله –سبحانه وتعالى– يقسم للنبي –صلى الله عليه وسلم– أنه سوف يأتي يوم يحلُّ لك القتال في هذا البلد، ولن يحلّ لأحد غيرك.. هذا هو المعنى الأول: الكلام عن المستقبل أنها ستكون لك حلالاً.

المعنى الثاني//"وَأَنتَ حِلٌّ" أي وأنت مُستحَلٌّ فيها دمك وعرضك. فالنبي –صلى الله عليه وسلم– كان المشركون كما في شرح أمين بن سعد: كانوا يتحرَّجون أن يؤذوا الطير والحيوان ولا يتحرجون من إيذاء سيد الأنام صلى الله عليه وسلم! فعندما يأتي شخص يريد أن يقتل أحدًا أو يضرب حيوانًا أو شجرًا كانوا يقولون: حرام؛ هذا بلد حرام، لكن لما كان النبي –صلى الله عليه وسلم– يُؤذَى يقولون: هذا حلال! هكذا المشركون دائمًا يتحايلون على القوانين الشرعية الموجودة، يستعملها عندما تنفعه، ويكفر بها إذا كانت ضده.

إذًا "وَأَنتَ حِلٌّ" أي وأنت مُستَحَلٌّ.. لذلك بعض العلماء تجده يُفسر كلمة حِلٌّ يقول: وأنت غرضٌ لهم، الغرض الذي هو للسهم، كأنهم صوَّبوا كلَّ السهام والرماح صوب النبي صلى الله عليه وسلم، وجَّهوا كل الطاقات لإيذاء النبي –صلى الله عليه وسلم– ولِهَدم النبي –صلى الله عليه وسلم– ولكن الله –عز وجل– عصمه صلى الله عليه وسلم.

هذا المعنى الأشهر وهذا المعنى الذي رجحه ابن عاشور وقال: إن (حِلٌّ) في اللغة لا تأتي إلا بمعنى حَلال، وإن كان بعض العلماء أنكر عليه وقال: حِلٌّ قد تأتي بمعنى مُقيم.

الذي قال إن حِلٌّ بمعنى مقيم قال: **(لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ) {البلد: ١}** ويزيدها شرفًا أنك مقيم بها –صلى الله عليه وسلم– فأصبح شرفًا على شرفٍ؛ شرف البلد وشرف ساكن البلد وهو النبي صلى الله عليه وسلم، المعنى الذي أميل إليه أن معنى حِلٌّ أي يَستَحِلُّونك؛ لأن السورة مكية.

فحِلٌّ لو قلنا بمعنى حلال؛ إما حلال في المستقبل ستحِلٌّ لك، أو في الواقع المضارع الذي نزلت فيه السورة الذي هو أنهم يستحلون إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم، إذًا

يقسم الله –عز وجل– أن المشركين تجرأوا على حرمة هذا البلد وآذوا النبي صلى الله عليه وسلم.

فبدأت السورة بأشد أنواع الابتلاء، ليس فقط إيذاء المؤمنين، ولكن إيذاء النبي –صلى الله عليه وسلم– أيضًا، وأن الله –عز وجل– يقسم بهذا وأن هذا حادث لا محالة، فمن يعتقد أن هناك إيمانًا دون ابتلاء فهو واهم **(أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ) {العنكبوت: ٢}**..

دائما تأتي (أَحَسِب) أو (أيحسب) في القرآن للحسابات الخاطئة والظنون الخاطئة، مثلما سيأتي معنا هنا مرتان في سورة البلد (أيحسب)، وفي المرتين حسابات خاطئة واهمة، وأيضًا في سورة العنكبوت: **(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) {العنكبوت: ٤}**،

إذًا دائمًا (حسب) في القرآن –فيما رأيت– تأتي للحسابات والظنون الخاطئة مثل: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ {البقرة: ٢١٤}، فيأتي القرآن ليصحح هذه الحسابات، كأن الإنسان عندما يحسب حسابات بعيدًا عن الشرع يحسبها بشكل خاطئ، فالقرآن يصححها له، فمن سيظن أن هناك إيمان دون ابتلاء فهو واهم، هناك ابتلاء وهناك معاناة، ومن أعلى صور هذه المعاناة في الكون معاناة النبي –صلى الله عليه وسلم– لنصر ونشر هذا الدين، وأنه أوذي في الله، قال صلى الله عليه وسلم: (أُخِفْتُ في اللهِ ولم يُخَفْ أحَدٌ وأُوذِيتُ في اللهِ ولم يؤذَى أَحَدٌ)[1]

أي مر عليه –صلى الله عليه وسلم– أوقات كان هو الوحيد الذي يُؤذى في الله، لأنه كان هو من بدأ الدعوة صلى الله عليه وسلم.

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ(١) وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ(٣)﴾ {البلد: الآيات ١–٣}

ماذا يعني "ووالد وما ولد"؟ فيها أقوال كثيرة، أشهر قولين أميل إليهما:

القول الأول: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣)﴾ أي كل والد وكل ولد على العموم، وهذا اختيار الطبري ودائما يميل الطبري في الأغلب للعموم طالما جاءت نكرة يقسم الله بكل والد وبولده، لماذا؟ سنذكر الآن.

القول الثاني: "والد" هو إبراهيم عليه السلام.

فإذا قلنا: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣)﴾ كل والد وابنه، فما علاقة ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣)﴾ بما قبلها وهو إيذاء النبي –صلى الله عليه وسلم– وما بعدها وهو جواب القسم ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ {البلد: ٤}؟

العلماء يقولون: هناك قَسَمان وجواب قسم، القسم الأول ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ *وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ﴾ {البلد: الآيات ١–٢}، كثير من العلماء قالوا: (وأنت حل) تابع لِـ (لا أقسم) وليست قَسَما منفصلا، إذًا يقسم الله –عز وجل– بهذا البلد في أثناء أن النبي –صلى الله عليه وسلم– يُؤذَى فيه، إذًا القسم بمكة بأعظم البلاد وأعظم العباد –صلى الله عليه وسلم– وهو يؤذى في هذا البلد، إذًا أعلى صور الابتلاء في أشرف الأماكن ذكرها ربنا في القَسم الأول. القَسَم الثاني: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ {البلد: ٣} ، جواب القسم الذي من المفترض أن يناسب القَسمين، أي كلمة: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ {البلد: ٤} تُناسب القسم الأول وتُناسب القسم الثاني، إذًا ما علاقة جواب القَسَم ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا

[1] {عن أنس بن مالك}: لقد أُخِفتُ في اللهِ وما يخافُ أحدٌ ولقد أُوذِيتُ في اللهِ وما يؤذى أحدٌ ولقد أتت عليَّ ثلاثون من بين يومٍ وليلةٍ ومالي ولبلالٍ طعامٌ يأكلُه ذو كبدٍ إلّا شيءٌ يواريه إبطُ بلالٍ. ابن القيم (٧٥١ هـ)، عدة الصابرين ٢٩٩/١ • صحيح • أخرجه الترمذي (٢٤٧٢)، وأحمد (١٤٠٥٥) واللفظ لهما، وابن ماجه (١٥١) باختلاف يسير.

الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ {البلد: ٤} بالقسم الأول؟ واضحة ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ {البلد: ٤} أن الإنسان سيُبتلى حتمًا، واضحة علاقتها بالقَسَم الأول، لأن الأول آية عذاب وتعذيب المشركين للمسلمين في مكة وخاصة النبي –صلى الله عليه وسلم– ومحاولة إيذاء النبي –صلى الله عليه وسلم– إذًا جواب القسم واضح جدًا بالقسم الأول.

فما علاقة ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ {البلد: ٤} بالقَسَم الثاني؟

إذا قلنا إن ﴿وَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ {البلد: ٣} معناها كل والد وولده؛ الإنسان في حياته الدنيا يعيش في معاناة، وأكثر صور هذه المعاناة تعلق الإنسان بولده، ويُبتلى الوالد بولده والولد بوالده، دائما هناك ابتلاء، وبالطبع ابتلاء الوالد بولده أشد، فالنبي –صلى الله عليه وسلم– يقول: (الولَدَ مَجبنةٌ مَبخلةٌ)[٢] ، الولد مجبنة أي كثير من الأشياء أنت تريد أن تفعلها لكنك تخاف على أولادك فلا تفعلها، كثير من الأموال تريد أن تنفقها فلا تنفقها بسبب أولادك، فالولد يمنعك من البذل أو بتعبير السورة الولد يمنعك من اقتحام العقبة، فكأن ربنا يقول: كل الناس تُبتلَى، هناك من يُبتلَى بأن يؤذى في سبيل نصرة هذا الدين وهناك من كل ابتلاءاته هي حياته الدنيوية، مسيرة حياته الدنيوية ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ {البلد: ٣} لأجل ذلك جاءت بصورة لا تنتهي ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ {البلد: ٣} فكأن هناك نوعين من الابتلاء، الابتلاء لنصرة هذا الدين والابتلاء في الحياة الدنيا، وأن كل الناس يُبتلَى، لا تعتقد أنك عندما تبتعد عن نصرة الدين أنك لن تُبتلَى! لا، ستُبتلَى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كبدَ﴾ {البلد: ٤} الإنسان للعموم والاستغراق،

كل الناس تبتلى (كل الناس يغدو)[٣] ، **كل الناس ستبتلى**، وبالطبع من يعمل للدين أيضا عنده ابتلاء في الأولاد، لكن مِن عِظَم ابتلائه في الدين هذا أعظم شيء في حياته، ولا يفتن بأزواجه وأولاده وأمواله،

[٢] عن يعلى العامري: جاء الحسَنُ والحسينُ يَسعيانِ إلى النَّبيِّ ﷺ فضمَّهما إليه وقال إنَّ الولَدَ مَبخلةٌ مَجبنةٌ

• الألباني (١٤٢٠ هـ)، صحيح ابن ماجه ٢٩٧٢ • صحيح • أخرجه ابن ماجه (٣٦٦٦) واللفظ له، وأحمد (١٧٥٩٨)

[٣] [عن أبي مالك الأشعري:] الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمانِ، والْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ المِيزانَ، وسُبْحانَ اللهِ والْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآنِ -أَوْ تَمْلأُ- ما بيْنَ السَّمَواتِ والأرْضِ، والصَّلاةُ نُورٌ، والصَّدَقَةُ بُرْهانٌ، والصَّبْرُ ضِياءٌ، والْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ، أوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُها، أوْ مُوبِقُها.

مسلم (٢٦١ هـ)، صحيح مسلم ٢٢٣ • [صحيح]

فهو يركز جهوده في نصرة هذا الدين، إذًا هناك نوعان من الابتلاء، هذا من قال إن ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ {البلد: ٣} بمعنى كل والد وكل ولد.

أما من قال: ﴿وَوالِدٍ وما وَلَدَ﴾ {البلد: ٣} إبراهيم عليه السلام وسيكون "وما ولد" النبي –صلى الله عليه وسلم– من نسله، أي أن تعذيبهم وإيذاءهم وابتلاءهم لم يمنع مسيرة التوحيد من لدُن إبراهيم عليه السلام إلى أن وصل النبي –صلى الله عليه وسلم– وبُعِث النبي صلى الله عليه وسلم في مكة، فمهما فعلوا من ابتلاءات ستظل هذه المسيرة مستمرة، مهما عُذِّبوا ومهما فعلوا، مثل الغرسة اللي غرسها إبراهيم في مكة، غرسة التوحيد،

والوقفة التي وقفها على الصخر، خلَّدها الله –عز وجل– في مقام إبراهيم، قَدَم إبراهيم عليه السلام حُفرت في الصخر،

وقفة خلَّدها الله –عز وجل– وظهر من نسله واستجابةً لدعائه "وَابْعَثْ فِيهِمْ" {البقرة: ١٢٩}،

سيدنا إبراهيم دعا ربنا سبحانه وتعالى أن يبعث فيهم من ذريته من يعلمهم ويتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، فاستجابةً لهذه الدعوة جاء محمد –صلى الله عليه وسلم– من نسل إبراهيم واستمرت الدعوة، فأنت تُصلي على محمد وتُصلي على إبراهيم في الصلاة، إذًا ﴿وَوالِدٍ وَما وَلَدَ﴾ {البلد: ٣} بذلك عرفنا علاقة ﴿وَوالِدٍ وما وَلَدَ﴾ {البلد: ٣} بما قبلها وما بعدها على كل القولين سواء إبراهيم أو كل والد وكل ولد.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسانَ في كَبَدٍ﴾ {البلد: ٤} لام التأكيد، وقد أيضًا للتأكيد، الإنسان: كل الناس في الكَبَد، في كَبَد: كأن الإنسان بداخل الكَبَد، عندما يُصاب الإنسان يقال: يصاب في كَبده، يتألم، وعندما يريد أن يصارع شيئًا يقولون: يُكابِد، في كل الأحوال الإنسان في مُعاناة ومشاق في هذه الدنيا، هذه المعاناة مُحيطة –كلمة في– مُحيطة بالإنسان، أي أن الإنسان مهما فعل سيظل في ابتلاء. كثير من الناس معتقد أنه إذا جاءت الأموال لن يكون هناك ابتلاءات، إذا رُزِق بالأولاد لن يكون هناك ابتلاءات، إذا سافر لن يكون هناك ابتلاءات، إذا مات فلان لن يكون هناك ابتلاءات، الابتلاءات ستظل موجودة، سيظل داخل هذا الكَبَد، محاولة الهروب من الكَبَد ليست حلًا،

لذلك قالت السورة: الحل مع الكَبَد ليس الهروب، إذًا ما هو الحل؟

الاقتحام ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾{البلد: ١١}، الحل في الابتلاءات والمتاعب ليس الهروب منها، شخص مثلًا هناك تضييق في الدعوة وهو معتقد أن الحل هو الذهاب لمكان فيه سعة، لا، الحل هو الاقتحام إلا إذا ضاق الأمر تمامًا، دائمًا الإنسان يعتقد أن الحل أن تستقيم الأمور، لا ليس هذا هو الحل، من الممكن أن تستقيم ولا يحدث شيء وأنت لا تعمل للدين، الحل: البذل والاقتحام في زمن الاستضعاف، مثلما سنأتي عندما ذكر الله أمثلة عن اقتحام العقبة.

إذًا ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ {البلد: ٤} هذه سُنَّة، "كُلُّ النَّاسِ يغدو فبائعٌ نفسَه فمُعتقها أو مُوبقها"[٤]،

وعندما قال ربنا ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ {البلد: ١٠} وسمّى –في السورة هنا– طريق الخير وطريق الشر (نجدًا)، والنجد: الهضبة المرتفعة الصعبة، كلا الطريقين صعب، النَّاس يعتقدون أن طريق الخير صعب وطريق الشر سهل، لا،

تحقيق الشهوة صعب أثناء الوصول، وبعد قضاء الشهوة هناك صعوبة ومشقة، هناك من يبذل لأجل الله، وهناك من يبذل لأجل نفسه! فربنا يقول: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ {البلد: ٤} في كل الأحوال سيظل الكبد محيطًا بك طوال فترة الحياة، هذه سُنّة؛ أن الدنيا دار ابتلاء،

من يتعجل الثواب في الدنيا ويعتقد أن الدنيا دار جزاء هذا واهم، أشبه بطالب في لجنة الامتحان، وجاءه امتحان من عشرة أسئلة، فقام بحل السؤال الأول، ويريد من يصفق له ويأتي له بهدية على ذلك، أكمِل الامتحان أولًا! لا، هو يريد وهو في لجنة الامتحان بعدما انتهى من السؤال الأول أن يُهنَّأ، يقول: انتهيت من الحل، يقال له: أكمِل الامتحان! لا يصح أن تُهنَّأ ولا أن تُجازى وأنت ما زلت في اللجنة، عندما تنتهي وتُحاسَب تُهنَّأ وتنال الجائزة.

فمن يريد أن ينال جزاء كل عمل يعمله مباشرةً هذا لا يصح، نعم الله سبحانه وتعالى شكور، الله –عز وجل– يشكُر الأعمال في الدنيا ويبارك ويعطي، ثم يَجزي مرة أُخرى في الآخرة سبحانه وتعالى، فهناك أشياء تُعجَّل سواء من الطاعات أو المعاصي، لكن نحن نتحدث عن الأصل، فالأصل أن الدنيا دار ابتلاء وعمل فلا يتعجل الإنسان الجزاء في الدنيا، الأصل أن الجزاء في الآخرة.

---
[٤] سبق تخريجه

إذًا الإنسان مُحاط بالصعاب، أنت لديك كَمٌّ من المشاكل في حياتك لابد أن تجاهد نفسك لتحافظ على دينك وتنصُر الدين في وسط هذه الظروف ولا تنتظر ظروفًا أخرى، دائمًا نقول: لو كان حدث كذا لكنت فعلت كذا، إذا كنت في وظيفة أخرى كنت سأدعو إلى الله، إذا كنت في مكان آخر كنت سأحفظ القرآن، إذا كنت في دولة أخرى كنت دعوت إلى الله، إذا كنت أعرف فلانًا كنت طلبت العلم...

هذا لا يُغني شيئًا عن الإنسان، من يفشل في ظروف سيفشل في الظروف الأخرى، هو دائما معتقد أنه إذا تحسنت الظروف سيكون صالحًا، لا، يجب أن تبذل في كل الظروف، أنت عبد في كل الظروف، نعم قد تختلف أنواع العبوديات من ظرف لظرف، ومن مكان لمكان، لكن أتحدث أنَّك ستظل تبذُل أيًّا كان نوع هذا البذل، البذل يختلف، من طاعة.. لإنفاق.. لجهاد.. لدعوة.. لأمر بمعروف ونهي عن منكر، نعم يختلف، وتزيد درجات وتقل درجات، لكن يظل يبذل، يظل يسير، يظل يقتحم..

إذًا من سُنن الله أنه ستظل الظروف، فاعتقاد أن الشيطان سيموت ويتوقف عن الوسوسة.. وأن الأعداء يتصالحون مع الأولياء.. وأن الباطل يتصالح مع الحق.. هذا وهم، سيظل الابتلاء، وستظل الصراعات.

لذلك مثلاً إحدى الابتلاءات التي تَمر بالإنسان: الشهوة، وأن ربنا خلق الإنسان جسديًا ومعنويًا فيه الشهوة، ليس صحيحًا أن يقطع الإنسان هذه الشهوة،

عندما جاء بعض من الصحابة النبي –صلى الله عليه وسلم– واستأذنه في الاختصاء[٥]؛ حتى يتخلص تمامًا من هذه الشهوة، قال له: لا هذا ليس هو الحل، ليس الحل الامتناع التام عن الابتلاءات. الحل أن تكون موجودة وتنجح، ليس الحل أن تكون الظروف كلها جيدة، لا، الحل أن تَعمل في وسط هذه الظروف، أن تجاهد، لن يتوقف الشيطان عن الوسوسة، ولن يتوقف أهل الباطل عن الحرب، إذًا لا بد للإنسان أن يستمر في المجاهدة.

لذلك أحب الأعمال إلى الله أدومها، الذي لا يتوقف، وتلك سبحان الله! نصيحة نبوية معجزة تدل أنَّه يتلقى وحيًا من الملك سبحانه وتعالى؛ لأنَّه لا يُخبِر بهذه النصيحة إلا مَنْ خلق هذه النفس، وهو أعلم بما يَصلح ويُصلِح هذه النفس، ما يصلُح لها وما يُصلِحُها، هذه النفس حتى تُرَوَّض لا بد من

---

[٥] [عن عبدالله بن مسعود:] كُنّا نَغْزُو مع النبيِّ ﷺ ليسَ لَنا نِساءٌ، فَقُلْنا: يا رَسولَ اللَّهِ، ألا نَسْتَخْصِي؟ فَنَهانا عن ذلكَ. البخاري (٢٥٦ هـ)، صحيح البخاري ٥٠٧١

المداومة والاستمرار؛ لذلك أحبُّ الأعمال إلى الله، **النبي –صلى الله عليه وسلم– يقول: (أَحبُّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قل)**[6]

أن تظل تعمل في كل الظروف مستمرًّا، حتى إذا جاء ظرف طارئ نلت الأجر، أصابك مرض أو اضطررت لسفر ولم تستطع إكمال الطاعات، يُعطيك الله –عزَّ وجل– أجر ذلك؛ حتى يستمر لك أجر المداومة.

"لَقَد خَلَقنَا الإنسانَ في كَبَدٍ" {البلد:٤} اذًا قُلنا السورة تتحدث، أو مما تتكلم عنه ومن القضايا الأساسية والتي هي جواب القسم، أنَّ الإنسان سيُبتلى قطعًا، إمَّا في الدين أو في الدنيا، وابتلاء الدين أعظم، لنُصرة هذا الدين، من الناس مَن لا ينشغل إلا بولده وبمالِه وبأهلِه، ويُفتَن ويترك نُصرة هذا الدين، **(إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ) {التغابن: ١٤}**

مما رُوي في نزولها أنَّهم تركوا الهجرة مع الرسول أو إلى الرسول –صلى الله عليه وسلم– لإرضاء أزواجهم وأولادهم فنزلت: **(إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ) {التغابن: ١٤}** هذه الآية في سورة التغابن، أي أن الإنسان قد يُغبَن في حسناته بسبب المحيطين به، فالإنسان سيُبتلى قطعًا. من الناس من يكون أعظم ابتلاءاته في نصرة هذا الدين، ومن الناس من لا ينشغل إلا بقضاياه الخاصة التي قد تصل إلى مرحلة من التفاهة التي لا توصف! **(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ) {البلد: ٤}**.

ثم يخبر الله –عزَّ وجل– عن منكرين للبعث وعن أسباب تجعلهم ينكرون البعث، إنكار البعث دائمًا مبني على إنكار صفتين من صفات الملك –سبحانه وتعالى– العلم والقدرة، أن الله –عز وجل– يعلم خبايا الإنسان وخفاياه وأسراره وأفعاله وجسده وأعضاءه بعدما تفتت وتقطع **(قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ) {يس: ٧٨}** كما ذكرنا في سورة يس.

إنكار صفة العلم المعْجِز، ينكرها الإنسان، وإنكار القدرة، فالإنسان الطاغي المعتدي الذي يظلم الناس ويُعَذِّب أهل الإيمان؛ الذي يجعله يفعل ذلك أنه ينكر صفتي القدرة والعلم لله سبحانه وتعالى، وأهم أسباب الضلال في العقائد أن يقيس الإنسانُ اللهَ على البشر، فيظن جاهلًا أنه أصبح قويًّا، إذًا الله لن يقدر عليه! أو يظن واهمًا أنه أحاط بالأسباب وأنها ستظل قائمة مستمرة، كما كان اليهود يتسارُّون –يتكلمون سرًّا– بأشياء ولا يريدون لأحد أن يخبر بها، فيَطَّلِع عليها الله! هذا جهل.

[6] [عن عائشة أم المؤمنين:] "أَحَبُّ الأعمالِ إلى اللهِ أدْومُها و إن قَلَّ" الألباني (١٤٢٠ هـ)، صحيح الجامع ١٦٣ • صحيح • أخرجه البخاري (٦٤٦٥)، ومسلم (٧٨٣) واللفظ له.

فقال الله عزَّ وجل: الحساب –الخطأ– الأول: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ {البلد:٥} يظن أن لن يقدر عليه أحد؟! قلنا (يحسب) أي الحسابات الخاطئة، (يحسب) لو قلنا إن معنى (حِلٌّ) أن يُعذَّب الرسول –صلى الله عليه وسلم– ويُؤذَى في مكة، يكون المعنى: أيحسب هذا الذي يُعذِّب أهل الإيمان، ويعادي أولياء الملك سبحانه وتعالى ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ؟﴾ {البلد:٥} هل معنى أن معه أسبابًا وأن الله يمهله أنه (لن يقدر عليه أحد)؟ هو يظن أن لن يقدر عليه أحد. هذا الحسبان يظنه الإنسان إذا امتلك كثيرًا من الأسباب ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى* أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى.﴾ { العلق: ٦-٧ }استغنى بأسبابه، استغنى عن الله؛ فيقول: لا يوجد شيء يقدر عليَّ، من هذا الذي يقدر عليَّ؟! الجنود معي، الأسلحة معي، العَتاد معي، والعُدَّة معي، هو يظن أنه أحاط وتمكَّن من الأسباب، كنا قد تكلمنا في مسألة هذا الظن أشبه بظن العنكبوت التي تظن أن بيتها سيحميها ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾ {العنكبوت: ٤١}.

- ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ {البلد:٥} ويقول لقد أنفقت مالاً عظيمًا لِأُحصِّن نفسي؛ فلن يستطيع أحدٌ أن يهلكني، فلقد أهلكت أنا المال؛ لأحافظ على نفسي، فلن يستطيع أحدٌ أن يهلكني!
- ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ {البلد: ٦} أنا صرفت أموالاً طائلةً على العُدَّةً والعَتاد وحصونًا مُشيَّدة؛ لن يستطيع أحدٌ أن يهلكني، بل أنا الذي أُهلِك الأموال؛ لأُهلِك الناس، لكن لا يستطيع أحدٌ أن يهلكني ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ {البلد: ٦} أهلكت مالاً لبدًا لها أكثر من معنى، المعنى الأول: الذي ذكرته؛ أنه أنفق مالاً عظيمًا ليدافع عن نفسه، وأنه لا يبالي بإهلاك المال؛ حتى لا يهلكه أحد، ويظن أنه تحصَّن بهذا المال ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ {البلد: ٦}، والقول الثاني: قيل "أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا": أنفقتُ مالاً كثيرًا للصدِّ عن هذا الدين؛ لأنه يظن –بل يوقن– أن هذا الدين سيذهب بعرشه، هذا الدين سيجتث عرشه فينفق المال حتى يمنع ويصدَّ عن هذا الدين، هو يعلم بالصراع بين الحق والباطل وهو أصلاً عبد للدينار والدرهم، عبد الدينار والدرهم يُفرط في الدينار والدرهم؛ ليحافظ على نفسه، فيصرف المال حتى يَصُدَّ الناس عن الدين فيحافظ على عرشه المبني على الظلم ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ {البلد: ٦}، لُّبَدًا: متراكمًا عظيمًا، القول الثالث: قيل "يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا": أنفقت مالاً كثيرًا في وجوه الخير، لا يقل لي أحد افعل شيئًا، أنا أنفقت مالاً كثيرًا، ومن لطائف التعبير في هذا القول أنه قال: "أهلكت" أن مال الكافر الذي يصرفه في وجوه الخير هو مالٌ مُهلَك كأنه أُلقِي في بحر! إنما المؤمن عندما ينفق في وجوه الخير، يَدَّخر هذا المال عند الله –عزَّ وجل–

وينمي الله –عزَّ وجل– هذا المال كما ينمي أحدنا فُلُوَّه، فالذي ينفق المال بدون إيمان –حتى لو كان في وجوه الخير– أشبه بالذي يُهلك المال "يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا" {البلد: ٦}.

إذًا الظن الأول أنه استغنى بأسبابه وأنه لن يقدر عليه أحد وأنفق ما معه من مال ليحافظ على نفسه فأنكر القدرة بالمال، أنكر القدرة بما معه من مال.

الحساب –الخطأ– الثاني: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ {البلد: ٧} أنكر علم الله بالتخفي، هو يظل يمكر ويخطط وبعدما يخطط في السر، خطته تنجح؛ فيظن أنه بهذا التخفي وبهذا المكر يستطيع أن يُغالِب دين الله، وبالتالي يظن أنه يغلب الملك –سبحانه وتعالى– حاشاه. ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ {البقرة: ٩} مع أنهم يخادعون الذين آمنوا، لكن الذي يُخادع أهل الإيمان يظن أنه يخادع الله، فقال الله: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ {البقرة:٩}؛ لذلك ربنا –سبحانه وتعالى– قال في الحديث: (من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب)[٧]، الذي يحارب أهل الإيمان ويريد خداع أهل الإيمان، فكأنما يحارب الله ويحاول أن يخادع الله –عز وجل– وما يخدع إلا نفسه في الحقيقة.

- ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ {البلد: ٧} هو يظن أن لا أحد يراه؛ فيخطط ويدبر في جلسات مغلقة ويضع البروتوكولات لهدم هذا الدين... هل هو معتقد أن لا أحد يراه؟!!!

- ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ﴾ {البلد: ٨} الذي أعطاه القدرة على الرؤية لا يراه! كيف يظن هذا؟! الذي جعلك ترى لن يبصرك؟ الذي جعلك تبصر هل يكون الذي أعطاك القدرة على فعل شيء لا يستطيع هو أن يفعله؟! كيف ذلك؟! صفات الكمال للملك سبحانه وتعالى أنت تبصر والله لا يبصرك؟! كيف؟! ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ * أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ﴾ {البلد: الآيات ٧–٨} أليس هو من جعلك ترى؟

[٧] [عن أبي هريرة:] إنَّ اللَّهَ قالَ: مَن عادَى لي وَلِيًّا فقَدْ آذَنْتُهُ بالحَرْبِ، وما تَقَرَّبَ إلَيَّ عَبْدِي بشيءٍ أحَبَّ إلَيَّ ممَّا افْتَرَضْتُ عليه، وما يَزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّهُ، فإذا أحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ به، وبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ به، ويَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بها، ورِجْلَهُ الَّتي يَمْشِي بها، وإنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، ولَئِنِ اسْتَعاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وما تَرَدَّدْتُ عن شيءٍ أنا فاعِلُهُ تَرَدُّدِي عن نَفْسِ المُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ وأنا أكْرَهُ مَساءَتَهُ.

البخاري (٢٥٦ هـ)، صحيح البخاري ٦٥٠٢ • [صحيح]

- ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ* وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ {البلد: الآيات ٩-١٠} فالذي أعطاك البصر، وأعطاك القدرة على الكلام، وعَرَّفَك طريقَي الحق والضلال، هو يبصرك ويحاسبك ويكلمك يوم القيامة، ثم يحاسبك على أي الطريقين سلكت، سرت في طريق الخير؟ أم في طريق الشر؟ ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ {البلد: ٧} هو يعتقد أن لم يشاهده أحد ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ﴾ {البلد:٨} هذه الطرق الوسائل التي أعطاها الله للإنسان؛ حتى يسير في طريق الهداية، حتى يختار طريقًا:

- ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ {البلد: ٨-١٠} قلنا النجدين: طريقي الحق والضلال، وربنا سماهم هنا نجدين، غير مثلًا السبيل ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ {الانسان: ٣} في سورة الإنسان؛ السبيل الذي سبَّلَته السابلة، أي سارت عليه الناس فأصبح فيه نوع من التمهيد قليلاً فهو ممهَد، هنا ربنا اصطفى لفظ النجد الذي فيه صعوبة؛ لأن السورة فيها صعوبة، نزلت في زمن ابتلاء، السورة تُخاطب الذين يظنُّون أن هناك إيمانًا دون ابتلاء، أو هناك حياة – سواء مؤمن أو كافر- بغير كبد. جُهد كل عُبَّاد الدينار والدرهم أن يصلوا إلى مستوى من الحياة ليس فيها كبد، وهذا لن يكون إلا في الجنة، أول ما يدخل الجنة يُقال لهم: لا كبد، لا هرم، لا مرض، لا جوع، لا عطش، لا عُري... أول ما يُبشر به أهل الجنة أن كل الكبد يُنسف في أول لحظة من لحظات دخول الجنة، فجهد كل عُبَّاد الدينار والدرهم أن يعيشوا حياة بدون كبد ولن يكون، وليس معنى ذلك التخلي عن بذل أو تسهيل الحياة لكن أقول للذي كل همه في ذلك »»» هذا وهم!

- ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ، وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ {البلد: ٨-١٠} ثم يقول الله عز وجل ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ، فَكُّ رَقَبَةٍ، أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ {البلد: ١١-١٤}

يقول الله عز وجل: أنه كان المفترض على الإنسان في هذه الابتلاءات أن يقتحم لا أن يهرب، أن يُواجه لا أن يخاف، وبهذا ينتصر الدين وبهذا يستمر الدين، أن يجاهد الإنسان ويبذل ويقتحم العقبة.

- ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ {البلد: ١١}

كلمة "فَلَا" لها معنيان: "فلا" قيل إنها لا نافية، أي أن كثيرًا من الناس لم يقتحم العقبة، ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ {يس: ٣٠} ، إذًا معنى ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ {البلد: ١١ } قيل معناها أي: لم يقتحم العقبة.

وقيل ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ معناها فهلَّا اقتحم العقبة؟ أي كان الأولى به والأجدر به أن يقتحم العقبة بدلاً من أن يُهلك ماله سواء في الصد عن سبيل الله أو في خيراتٍ دون إيمان، فهلَّا اقتحم العقبة؟

الاقتحام قيل: ما الفارق بين الاقتحام والدخول أو المضِيِّ؟

قيل: الاقتحام يصحبه معانٍ أخرى منها: إلقاء النفس دون تفكير أو رَوِيَّة، وقيل: العزم والنشاط والقوة، إذًا الاقتحام أن يرمي الانسان نفسه دون تفكير أو رَوِيَّة، أوبعزم وبقوة وبنشاط، هذا هو الاقتحام.

"الْعَقَبَةَ" ما معنى العقبة؟

قيل: العقبة هي طريق ضيق بين جبلين، هو طريق ضيق بعده مُتسع هذه عقبة، إذًا العقبة كأن طريقًا يسير ثم يضيق يضيق بين جبلين ثم يتسع، هذه المنطقة الضيقة اسمها الْعَقَبَةَ.
فالله يقول: اقتحِم هذه العقبة، لا تتوقف، وأنت تسير في طريق تقابلك عقبات، فالعقبات هي مضائق في الطريق يجب أن تقتحمها. كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ﴾ {النجم: ٣٣-٣٤}
تولّى أي انصرف، فلماذا تولّى إذًا؟ لأنه بدأ من الأصل بداية ضعيفة "أعطى قليلاً" ثم إن هذه البداية الضعيفة توقفت عند أول كُدْيَة.. أكدى (ألِف الوصول هذه) أكدى أي بلغ الكُدية، وصل الى الكُدية والكُدية هي الصخرة الصعبة في الطريق، بمجرد أن قابلته صخرة لَفَّ ورجع، هو من الأصل دخل وهو متردد فرجع، أعطى قليلاً، بدأ بداية مترددة، وليست بداية قوية فبمجرد أن قابله أول صعب من الصعاب رجع، فالحل مع هذه الصعاب هو الاقتحام، الوقوف طويلاً للتفكير لن يجدي شيئاً.. كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فقُتل كيف قدر﴾ {المدثر: ١٨-١٩}

الذي سيجلس ليفكر كثيرًا لن يقتحم، فحين تفكر في اقتحام العقبات أنت لست بمفردك، ستفكر ومعك الشيطان سيُثَبِّطك، فلذلك الإنسان لابد أن يقتحم، فقال الله عز وجل: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ {البلد: ١١} أي فهلَّا اقتحم العقبة؟ في زمن الابتلاءات والاستضعاف لابد للإنسان أن يقتحم العقبة.

ما هي العقبة؟

- ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴾ {البلد: ١٢} **ب**عض المفسرين قال: العقبة هو جبل في جهنم لن يستطيع الإنسان أن ينجو منه إلا بفعل الطاعات.

وقيل: العقبة الصراط الممدود على النار لن يستطيع الإنسان المرور عليه إلا بفعل هذه الطاعات.

وقيل: العقبة الابتلاءات في الدنيا، أي المكاره، التي حُفَّت بها الجنة..

قال النبي صلى الله عليه وسلم: (حُفت الجنة بالمكاره)[8] ، لن يستطيع الإنسان الوصول للجنة إلا بالمرور على هذه المكاره، إلا بعبور هذه المضائق في الطريق، وهذه المضائق لا تُعبَر إلا بالاقتحام، هناك عقبات في طريق الالتزام لا تُعبر إلا بالاقتحام، أكرر: هناك عقبات في طريق الالتزام، هناك مكاره حول الجنة، لن تصل إلى الجنة إلا باقتحام هذه المكاره.

﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ {البلد: الآيات ١١–١٢} دائمًا يصور الشيطان للناس طريق الخير صعبًا، وهذا من ابتلاء الله عز وجل للناس،

لذلك في أعظم فتنة في التاريخ، فتنة الدجال، عندما يأتي الدجال في آخر الزمان معه جنة ومعه نار، **فيقول النبي صلى الله عليه وسلم –صلوا عليه– (ناره جنة وجنته نار)**[9]!

إذًا المشهد كالآتي: دجّال معه نار عظيمة تحرق، ما هي حقيقة هذه النار؟ هي جنة!

حتى تدخل إلى الجنة لابد أن تقتحم النار، الذي سيظل واقفًا أمام نار الدجال يفكر: وماذا إن احترقت؟ هل أجرب؟ هل أنظر؟ آتي بورقة فأجرب وأنظر ماذا يحدث لها؟ هذا لن يدخل! إذًا ما الحل؟

لذلك في بعض الروايات النبي صلى الله عليه وسلم قال: إذا تردد الإنسان فليُغمض عينيه وليقتحم[10]، إذًا الحل أن يُلقي الإنسان نفسه وإن لم تستطع أغمض عينيك وارم نفسك في نار الدجال.

---

[8] [عن أنس بن مالك:] حُفَّتِ الجَنَّةُ بالمَكارِهِ، وحُفَّتِ النّارُ بالشَّهَواتِ.مسلم (٢٦١ هـ)، صحيح مسلم ٢٨٢٢ • [صحيح]

[9] [عن أبي هريرة:] ألا أُخْبِرُكُمْ عَنِ الدَّجّالِ حَدِيثًا ما حَدَّثَهُ نَبِيٌّ قَوْمَهُ: إنَّه أعْوَرُ، وإنَّه يَجِيءُ معهُ مِثْلُ الجَنَّةِ والنّارِ، فالَّتي يقولُ إنَّها الجَنَّةُ هي النّارُ، وإنِّي أنْذَرْتُكُمْ به كما أنْذَرَ به نُوحٌ قَوْمَهُ.

مسلم (٢٦١ هـ)، صحيح مسلم ٢٩٣٦ • [صحيح]

[10] [عن حذيفة بن اليمان:] أنا أعْلَمُ بما معَ الدجالِ منه، معه نهرانِ أحدهما نارٌ تأَجَّجُ في عينِ من يراهُ، والآخرُ ماءٌ أبيضُ، فمن أدركَهُ منكم فليُغمِضْ عينيهِ وليشربْ من نهرِ النارِ الذي معه فإنه باردٌ، وإياكم والآخرُ فإنه فتنةٌ، واعلموا أنه مكتوبٌ بين عينيهِ كافرٌ يقرؤه من كتبَ ومن لم يكتبْ، وأن إحدى عينيهِ ممسُوحةٌ عليها ظفرةٌ، وأنه مُطّلِعٌ من آخرِ عمرِهِ على بطنِ الأردنِ على ثنيّةٍ فيقِ وكل أحدٍ يؤمن باللهِ واليومِ الآخرِ

إذًا الحل أن يُلقي نفسه في هذا الطريق. كثير ممن يظل يفكر ألتَزِم أم لا، ألتَزِم أم لا؟ هذا لن يلتزم إلا أن يشاء ربي شيئًا، هذا التردد، قال له: (ارْكَبْ مَعَنَا) {هود: ٤٢}، قال: (سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ) {هود: ٤٣} والنتيجة؟ (فَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ) {هود: ٤٣} ما أكثر ما يقع المترددون!

قال له: (يا عم قل كلمة أشفع لك بها عند ربي)[11] ، ظل يفكر في رأي الناس فيه، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: هو على ملة عبد المطلب. فالإنسان لابد أن يقتحم "فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ". أحيانًا يكون الطريق سهلًا، أشياء في الدين سهلة، ثم يأتي مضيق في الطريق، ليس الحل أن تقف أو تتردد أو تلف وترجع للخلف،

الحل أن تقتحم هذه المضائق، هذه المكاره، من هذه الابتلاءات أن يحصل تضييق عام؛ مثلما ذُكِر في أول السورة، تعذيبٌ عامٌّ لكل أهل مكة مثلما سيتم ذكره هنا "مسغبة" مجاعة عامة، ابتلاءات عامة، هذه مضائق، جوع وفقر عام، جفاف دَعوي عام، هذه ابتلاءات يمر بها الإنسان لا بد أن يقتحمها، الحل فيها هو الاقتحام.

لذلك عندما تحدث الله عن طريقة مشي المنافقين في طريق الدين قال: (وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا) {البقرة: ٢٠} إذا كانت الأمور على ما يرام وهناك انتصارات فنِعْمَ بها، لكن كلما أظلم عليهم ماذا

بطنِ الأُرْدُن وأنه يقتل من المسلمينَ ثلثا ويهزمُ ثلثا ويبقى ثلثٌ فيحجزُ بينهم الليلُ، فيقول بعضُ المؤمنينَ لبعضٍ ما تنتظرون؟ ألا تريدونَ أن تلحقُوا بإخوانِكُم في مرضاةِ ربِّكُم؟ من كان عندهُ فضلُ طعامٍ فليعدْ به على أخيهِ، وصلوا حين ينفجرُ الفجرُ وعجِّلُوا الصلاةَ، ثم أَقْبِلُوا على عدوِّكُم، قال: فلما قاموا يصلّونَ نزلَ عيسى وإمامُهُم يصلّي بهم، فلما انصرفَ قال هكذا: فرّجُوا بيني وبينَ عدوِ اللهِ قال: فيذوبُ كما يذوبُ الملحُ في الماءِ فيسلّطُ عليهم المسلمينَ فيقتلونهُم حتى إن الحجرَ والشجرَ ينادي يا عبد الله يا مسلمُ، هذا يهوديّ فاقتلهُ، ويظهرُ المسلمونَ فيُكسرُ الصليبُ، ويقتلُ الخنزيرُ وتوضعُ الجزيةُ فبينما هم كذلكَ إذ أخرجَ اللهُ يأجوجَ ومأجوجَ، فيشربُ أولهم، ويجيءُ آخرهُم وقد انتشفوا فما يدعونَ منه قطرةً، فيقولون: هاهنا أثرُ ماءٍ، ونبيّ اللهِ وأصحابهِ وراءهُم حتى يدخلوا مدينةً من مدائنِ فلسطينَ يقال لها باب لُدّ فيقولون ظهرنا على من فِي الأرضِ، فتعالوا نقتلْ من في السماءِ، فيدعو اللهَ بعدَ ذلكَ فيبعثُ اللهُ عليهم قرحةً في حلوقهِم فلا يبقى منهم بشرٌ، ويؤذِي ريحُهم المسلمينَ، فيدعو عيسى عليهِم، فيرسلُ اللهُ عليهم ريحًا تقذفهُم في البحرِ أجمعينَ

ابن كثير (٧٧٤ هـ)، نهاية البداية والنهاية ١٦٤/١ • فيه سياق غريب وأشياء منكرة

[11] [عن المسيب بن حزن:] أنَّهُ لَمّا حَضَرَتْ أبا طالِبٍ الوَفاةُ جاءَهُ رَسولُ اللَّهِ ﷺ، فَوَجَدَ عِنْدَهُ أبا جَهْلِ بنَ هِشامٍ، وعَبْدَ اللَّهِ بنَ أبِي أُمَيَّةَ بنِ المُغِيرَةِ، قالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ لأبِي طالِبٍ: يا عَمِّ، قُلْ: لا إلَهَ إلّا اللَّهُ، كَلِمَةً أشْهَدُ لكَ بها عِنْدَ اللَّهِ فَقالَ أبو جَهْلٍ، وعَبْدُ اللَّهِ بنُ أبِي أُمَيَّةَ: يا أبا طالِبٍ أتَرْغَبُ عن مِلَّةِ عبدِ المُطَّلِبِ؟ فَلَمْ يَزَلْ رَسولُ اللَّهِ ﷺ يَعْرِضُها عليه، ويَعُودانِ بتِلْكَ المَقالَةِ حتّى قالَ أبو طالِبٍ آخِرَ ما كَلَّمَهُمْ: هو على مِلَّةِ عبدِ المُطَّلِبِ، وأَبى أنْ يَقُولَ: لا إلَهَ إلّا اللَّهُ، فَقالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ: أما واللَّهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لكَ ما لَمْ أُنْهَ عَنْكَ فأنْزَلَ اللَّهُ تَعالى فِيهِ: {ما كانَ لِلنَّبِيِّ} [التوبة: ١١٣] الآيَةَ.

البخاري (٢٥٦ هـ)، صحيح البخاري ١٣٦٠ • [صحيح]

يفعل؟ يقف، كلما حدث ابتلاء أو خسارة أو هزيمة، يقف، هذه طريقة سير المنافقين في طريق الدين، المؤمن يقتحم، فقال الله عز وجل: (فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ) {البلد: ١١} سواء العقبة الأخروية جبل في النار والعياذ بالله أو الصراط، أو العقبة الدنيوية من المكاره التي لا بد أن يجتازها الإنسان للدخول إلى الجنة، هذه العقبة قال الله عز وجل عنها: (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ) {البلد: ١٢} ثم أتى لنا بأمثلة لعقبات قد تمرُّ في حياة الإنسان لابد أن يقتحمها منها:

- (فَكُّ رَقَبَةٍ، أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ، يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ، أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ) {البلد: الآيات ١٣-١٦}.

"فك رقبة" لنفهم قيمة فكِّ الرقبة؛ الوضع في مكة كله استضعاف، غالب من آمن هم من المستضعفين والعبيد عند المشركين في قريش وهناك فقر، تخيَّل واحدًا في زمن الفقر في مكة يأتي بالمال لكي يعتق واحدًا من المسلمين عند كبراء المشركين! يُسأل لماذا تعتقه؟ ألا تحتاج إلى هذا المال؟ من الممكن أن يُعذَّب، من الممكن أن يُضيَّق عليه!

أن يأخذ قرارًا كهذا ويدافع عن إخوانه، هنا نلاحظ معنى الاقتحام.

العجيب أن الأمثلة التي ذكرها الله في الاقتحام هي في مساعدة الآخرين المنكوبين، فكأن الحل في وقت الأزمات ليس فقط أن تبحث عن نفسك، ولكن أيضًا أن تساعد الآخرين. الله يتكلم عن فك رقبة من الرق والعبودية، فما بالك بالذي يسعى في فك رقاب الناس من الشهوات في زمن جفاف دعوي؟! هو يسعى في فك رقاب الناس من الفتن، في فك رقاب الناس من النار ويساعد الناس على العتق من النار، فالذي يساعد الناس على العتق من العبودية للبشر في الدنيا هذا خير عظيم، تخيل من يساعد الناس على العتق من النار.

- (فَكُّ رَقَبَةٍ) {البلد:١٣} الاقتحام ليس فقط بالنجاة بالنفس، بل النجاة بالنفس وبالآخرين، يسعى لإفادة الآخرين ولإعطاء الخير للآخرين حتى في زمن الاستضعاف، حتى في زمن الاحتياج، حتى لو أنه محتاج لهذا المال، حتى لو كان سوف يُضَرُّ في سعيه في فك رقاب الآخرين، فمن الممكن أن يذهب لعتق رقبة أحدهم فيُعذَّب هو! ومن الممكن أن تدعو شخصًا فتتعرض للخطر، لكنَّك مع هذا تذهب، في وسط الضيق أنت تسعى للدعوة.
-
- (أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ) {البلد: ١٤} لذلك لما قال الله تعالى: الإطعام خصَّه بيوم "ذي مسغبة"، ليس أي إطعام، من الممكن أن يكون معك مال كثير وطعام كثير فتُطعِم، ليس هذا

اقتحام العقبة، هذا السير الطبيعي في الطريق الواسع، هذا السير في الطريق المنير، كما ذكرنا عن المنافقين، إنما الإشكالية في المضائق التي تأتي، في المكاره، في "كلما أظلم عليهم"، في الابتلاءات، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعبُدُ اللَّهَ عَلى حَرفٍ فَإِن أَصابَهُ خَيرٌ اطمَأَنَّ بِهِ﴾ {الحج: ١١} طالما الأمور تسير هو يسير ﴿فَإِن أَصابَهُ خَيرٌ اطمَأَنَّ بِهِ وَإِن أَصابَتهُ فِتنَةٌ﴾ المضيق هنا، الآن ﴿انقَلَبَ عَلى وَجهِهِ خَسِرَ الدُّنيا وَالآخِرَةَ﴾ {الحج: ١١} والعياذُ بالله، لم يقتحم.

- ﴿أَو إِطعامٌ في يَومٍ ذي مَسغَبَةٍ﴾ {البلد: ١٤} مسغبة أي مجاعة وقيل السغب: جوع مع تعب ونصَب، الناس تعمل ورغم ذلك لا تجد الطعام، ليس فقط مجاعة، هؤلاء يعملون بأقصى جهد ويتعبون ورغم ذلك لا يجدون الطعام، في هذا الوقت كل جزء بسيط من الطعام يُحافظ الناس عليه، لا أحد يعلم ماذا يحدث غدًا ومتى تنتهي هذه المجاعة هذه مجاعة عامة، وفي هذه الظروف كيف تجد الشخص يُطعِم؟! سيُقال له وتحدثه نفسه: دع هذا الطعام لأولادك قد تحتاجه، لكن هذه مجاعة عامة، فيَعظُم الأجر للذي يُطعِم في وقت المجاعة، ويَعظُم الأجرُ للذي يبذل ويدعو إلى الله في وقت الخوف والجُبن، ويَعظم الأجر للذي يعبد ويصلي في وقت الهرج والفتنة النبي صلى الله عليه وسلم قال: "عبادةٌ في الهرج كهجرةٍ إليَّ"[١٢] ، البذل في أوقات الاستضعاف مع عظم الأجر، هذا هو اقتحام العقبات.

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، محمد صلى الله عليه وسلم.

كنا نقول أنه في وقت الفتن، في وقت الأزمات، وقت المجاعات، يعظُم الأجر.

الله عز وجل يُقدّر هذه الأوقات؛ لتخرج منا العبوديات. فالله قادر أن يجعل الحياة كلها سهلة، لكنه سبحانه بحكمة منه وبلطف أيضًا –فحكمته محفوفة دائما باللطف وبالرحمة– يُقدّر هذه الابتلاءات لتخرج منا عبوديات وطاعات وطاقات كانت مختزنة، لم تكن لتخرج إلا في مثل هذه الأوقات. فحينما يُقدِّر الله سبحانه مسغبة، حينما يُقدِّر هذه المجاعة يُقدِّرها لينظر كيف يفعل الناس!

أيضا في مراحل الجفاف الدعوي التي من الممكن أن تمر، ينظر الله ماذا يفعل الإنسان: سواء الداعية أو الناس، هل الناس ستبحث عن الدعوة؟

[١٢] [عن معقل بن يسار:] العِبادَةُ في الهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إلَيَّ. مسلم (٢٦١ هـ)، صحيح مسلم ٢٩٤٨ • [صحيح]

هناك أوقات تكون الدعوة موجودة في كل مكان، والدين موجود في كل مكان.

وهناك أوقات أخرى نجد الدعوة والدين في أماكن قليلة، لكنه لا ينفد أبدًا، في هذه الأوقات يكون الدين موجودًا في أماكن لا بد أن يبحث الناس عنه، هل سيسكت الداعية في هذه الأوقات؟ أم سيتكلم ويجهر بالحق وينصر الدين؟ لا بد من اقتحام هذه المضائق!

وفي السورة: أول مثال ذُكِر على هذه الابتلاءات هو الأذى الذي تعرض له النبي –صلى الله عليه وسلم– في مكة، فإذا كان أشرف الخلق –صلى الله عليه وسلم– تعرّض إلى هذا البلاء، فكيف يظن من هو دونه؟!

فالرسول صلى الله عليه وسلم نزل الدم من وجهه الشريف، وربط على بطنه الحجرين، ونزل الدم من إصبعه، فقال: (وهل أنت إلا إصبع دميت؟)[13]

ما المشكلة إذا نزل الدم طالما في سبيل الله؟ "وهل أنت إلا إصبعٌ دميت، وفي سبيل الله ما لقيت؟" فهذا الدم في سبيل الله،

ولذلك كل شيء يهون طالما أنه في سبيل الملك سبحانه وتعالى، وفي سبيل نصرة هذا الدين.

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤)) {البلد: الآيات ١٢–١٣} بالرغم من المجاعة والتعب المنتشر، إلا أنه يبذل ويطعم، وإذا كان هذا في الماديات، فهو في المعنويات أولى، كما يقول شيخ الاسلام ابن تيمية: حاجة الناس إلى الدين أعظم من حاجتهم إلى الغذاء... تخيل الذي يطعم الناس في وقت المجاعات كم يكون أجره؟ فما بالك بالذي يُعلّم الناس الدين في وقت المجاعات الدعوية؟!

- **(يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ) {البلد: ١٥}** دائمًا **(وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) {الشعراء: ٢١٤}،** وإطعام الأقربين، واليتيم الذي ليس له أحد، فوالده توفي، ولذلك من المهم مراعاة الناس أصحاب الاحتياجات، لا بد أن يرعاهم الإنسان.
- **(أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ) {البلد: ١٦}** اليتيم من الممكن ألا يكون فقيرًا جدًا، لذلك قال الله سبحانه (**يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ**) **{البلد: ١٥}** فليس من الضروري أن يكون اليتيم فقيرًا، من

[13] [عن جندب بن عبدالله:] هلْ أنتِ إلّا إصبَعٌ دَميتِ و في سبيلِ اللهِ ما لقيتُ

الألباني (١٤٢٠ هـ)، صحيح الجامع ٧٠٢٣ • صحيح

الممكن أن تكون مع اليتيم نقود لكنه لا يعلم كيف يتصرف فيها، لذلك هو يحتاج أن تساعده في هذه الفترة.

- ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ {البلد: ١٦} متربة أي: التصق بالتراب. كانوا يدعون ﴿تَرِبَت يداك﴾ أي: التصقت بالتراب. فمن شدة الفقر لم يعد هناك غير التراب.

لذلك في الحديث الصحيح: (فاظفر بذات الدين تربِت يداك)[١٤] ، لها معنيان:

المعنى الأول أي: إن لم تظفر بها يدعو عليك بالفقر. أي فاظفر بذات الدين وإلا تربت يداك، أي: التصقت يدك بالأرض من الفقر، فلا تمسك المال ولكن تمسك التراب.

والمعنى الثاني أي: البركة، فحتى التراب يتحول إلى ذهب في يدك.

العجيب أن الأمثلة التي جاءت في اقتحام العقبة في الواقع المكي المستضعف الفقير أمثلة بذل أموال، والسؤال هنا: هل نحن معنا مال حتى نبذله؟!

هذه أخلاق ثابتة لا تتغير باستضعاف أو بتمكين، مثل أخلاق سيدنا يوسف طوال السورة، فسواء في السجن، سواء مستضعف، أو مُمكَّن، هناك أخلاق ثابتة لا تتغير. فهناك أخلاق يجب أن يكون لدى الإنسان ثبات فيها، لا تتغير.

فهو لا ينفق فقط عندما يحتاج شيئًا من الآخرين، فإذا لم يحتج منهم شيئًا توقف عن الإنفاق، بل هو ينفق في كل الأوقات. هذا بذل، هذه هي عقيدة البذل عند الإنسان.

والعجيب أن كثيرًا من هذه المسائل تكررت في مكة، ونزلت آيات كثيرة في البر بالأهل –حتى لو كان الأهل مشركين لكن لا تطعهم في الشرك– والإنفاق على الفقراء، فعقيدة البذل تُغرس في المسلمين منذ وقت مكة، في زمن الاستضعاف. هذه أخلاق ثابتة لا تتغير، وبها يُمكَّن الإنسان، لكنه لا يفعل ذلك لأجل التمكين فإذا جاء التمكين تركها، بل هذه عقائد يحبها الله عز وجل، وأخلاق يحبها الله عزَّ وجل في كل الأوقات.

فمن الأمور العجيبة جدًا أن هذه الآيات تنزل في واقع مكة، وواقع أوله تعذيب: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ {البلد: ٢} مستضعف وتؤذى، وفي نفس الوقت ننفق ونبذل الخير؟ نعم، لأن فعل الخير لا

[١٤] [عن أبي هريرة:] تُنْكَحُ المَرْأَةُ لأرْبَعٍ: لِمالِها ولِحَسَبِها وجَمالِها ولِدِينِها، فاظْفَرْ بذاتِ الدِّينِ، تَرِبَتْ يَداكَ
صحيح البخاري ٥٠٩٠ • [صحيح] • ومسلم (١٤٦٦)

يتوقف على رد فعل الناس من هذا الخير. أنت تبذل الخير؛ طلبًا لرضا الله سبحانه وتعالى، هذه أخلاق ثابتة لا تتبدل ولا تتغير، والثبات عليها يؤدي إلى النتيجة التي ذكرها الله عز وجل: **﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ {فصلت: ٣٤}.**

ومن المعروف أن من أحبار اليهود مَن كان يأتي النبي صلى الله عليه وسلم ليختبره بهذه: (أنه لا يزيده جهل الجاهل عليه إلا حلمًا). فيجهل عليه، فيحلم النبي صلى الله عليه وسلم ويعطي، فيوقن اليهودي أنه لا يفعل ذلك إلا نبي؛ لأنه بالحسابات البشرية وبقياس مصالح ومفاسد معينة لن يكون هذا هو رد الفعل.

لما يأتي رجل للنبي صلى الله عليه وسلم –حاكم دولة المدينة– وفي وسط الصحابة، في ظل التمكين في المدينة، ويأتي للنبي صلى الله عليه وسلم، يقول له: أعطني من المال، أنتم قوم مُطل يا بني عبد المطلب. ولما همَّ عمر بن الخطاب أن يضرب عنقه يقول النبي لعمر: هلا أمرتني؟ فيبدأ النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه، "هلا أمرتني بحسن الأداء وأمرته بحسن الطلب؟" ثم يقول لعمر: (أعطه ماله ثم زده مالًا جزاء ما رَوَّعْتَه)[١٥]

---

[١٥] [عن عبدالله بن سلام:] إنَّ اللهَ تبارَك وتعالى لَمَّا أراد هُدى زيدِ بنِ سَعْنةَ قال زيدُ بنُ سَعْنةَ: إنَّه لم يبقَ مِن علاماتِ النُّبوَّةِ شيءٌ إلَّا وقد عرَفْتُها في وجهِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حينَ نظَرْتُ إليه إلَّا أثنين لم أخبُرْهما منه: يسبِقُ حِلْمُه جهلَه ولا يزيدُه شدَّةُ الجهلِ عليه إلَّا حِلمًا فكُنْتُ أتلطَّفُ له لِأنْ أُخالِطَه فأعرِفَ حِلْمَه وجهلَه قال: فخرَج رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن الحُجُراتِ ومعه عليُّ بنُ أبي طالبٍ فأتاه رجلٌ على راحلتِه كالبدويِّ فقال: يا رسولَ اللهِ قريةُ بني فلانٍ قد أسلَموا ودخَلوا في الإسلامِ كُنْتُ أخبرته أنَّهم إنْ أسلَموا أتاهم الرِّزقُ رغدًا وقد أصابهم شدَّةٌ وقحطٌ مِن الغيثِ وأنا أخشى يا رسولَ اللهِ أنْ يخرُجوا مِن الإسلامِ طمَعًا كما دخَلوا فيه طمَعًا فإنْ رأَيْتَ أنْ تُرسِلَ إليهم مَن يُغيثُهم به فعَلْتَ قال: فنظَر رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى رجلٍ إلى جانبِه أراه عمرَ فقال: ما بقي منه شيءٌ يا رسولَ اللهِ قال زيدُ بنُ سَعْنةَ: فدنَوْتُ إليه فقُلْتُ له: يا محمَّدُ هل لك أنْ تبيعَني تمرًا معلومًا مِن حائطِ بني فلانٍ إلى أجلِ كذا وكذا ؟ فقال: (لا يا يهوديُّ ولكنْ أبيعُك تمرًا معلومًا إلى أجلِ كذا وكذا ولا أُسمِّي حائطَ بن فلانٍ) قُلْتُ: نَعم فبايَعني صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فأطلَقْتُ هِمياني فأعطَيْتُه ثمانينَ مثقالًا مِن ذهبٍ في تمرٍ معلومٍ إلى أجلِ كذا وكذا قال: فأعطاها الرَّجلَ وقال: (اعجَلْ عليهم وأغِثْهم بها) قال زيدُ بنُ سَعْنةَ: فلمَّا كان قبْلَ محلِّ الأجلِ بيومينِ أو ثلاثةٍ خرَج رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في جِنازةِ رجلٍ مِن الأنصارِ ومعه أبو بكرٍ وعمرُ وعثمانُ ونفرٌ مِن أصحابِه فلمَّا صلَّى على الجِنازةِ دنا مِن جدارٍ فجلَس إليه فأخَذْتُ بمجامعِ قميصِه ونظَرْتُ إليه بوجهٍ غليظٍ ثمَّ قُلْتُ: ألا تقضيني يا محمَّدُ حقِّي ؟ فواللهِ ما علِمْتُكم بني عبدِ المطَّلبِ - بمُطلٍ ولقد كان لي بمُخالَطتِكم عِلمٌ قال: ونظَرْتُ إلى عمرَ بنِ الخطَّابِ وعيناه تدورانِ في وجهِه كالفلَكِ المستديرِ ثمَّ رماني ببصرِه وقال: أيْ عدوَّ اللهِ أتقولُ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما أسمَعُ وتفعَلُ به ما أرى ؟ فوالَّذي بعَثه بالحقِّ لولا ما أُحاذِرُ فَوْتَه لضرَبْتُ بسيفي هذا عنقَك ورسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ينظُرُ إلى عمرَ في سكونٍ وتُؤدةٍ ثمَّ قال: (إنَّا كنَّا أحوجَ إلى غيرِ هذا منك يا عمرُ أنْ تأمُرَني بحُسنِ الأداءِ وتأمُرَه بحُسنِ التِّباعةِ اذهَبْ به يا عمرُ فاقضِه حقَّه وزِدْه عشرينَ صاعًا مِن غيرِ مكانَ ما رُعْتَه) قال زيدٌ: فذهَب بي عمرُ فقضاني حقِّي وزادني عشرينَ صاعًا مِن تمرٍ فقُلْتُ: ما هذه الزِّيادةُ ؟ قال: أمَرني رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ أزيدَك مكانَ ما رُعْتُك فقُلْتُ: أتعرِفُني يا عمرُ ؟ قال: لا، فمَن أنتَ ؟ قُلْتُ: أنا زيدُ بنُ سَعْنةَ قال: الحبرُ ؟ قُلْتُ: نعم، الحبرُ، قال: فما دعاك أنْ تقولَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما قُلْتَ وتفعَلَ به ما فعَلْتَ فقُلْتُ: يا عمرُ كلُّ علاماتِ النُّبوَّةِ قد عرَفْتُها في وجهِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حينَ نظَرْتُ إليه إلَّا اثنتينِ لم أختبِرْهما منه: يسبِقُ حِلْمُه جهلَه ولا يزيدُه شدَّةُ الجهلِ عليه إلَّا حِلمًا فقد اختبَرْتُهما فأُشهِدُك يا عمرُ أنِّي قد رضيتُ باللهِ ربًّا وبالإسلامِ دينًا وبمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نبيًّا وأُشهِدُك أنَّ شَطْرَ مالي - فإنِّي أكثرُها مالًا - صدقةٌ على أمَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال عمرُ أو على بعضِهم فإنَّك لا تسَعُهم كلَّهم قُلْتُ: أو على بعضِهم فرجَع عمرُ وزيدٌ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال زيدٌ: أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فآمَن به وصدَّقه وشهِد مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مشاهدَ كثيرةً ثمَّ توفِّي في غزوةِ تبوكَ مُقبِلًا غيرَ مُدبِرٍ) رحِم اللهُ زيدًا قال: فسمِعْتُ الوليدَ يقولُ: حدَّثني بهذا كلِّه محمَّدُ بنُ حمزةَ عن أبيه عن جدِّه عن عبدِ اللهِ بنِ سلَامٍ

هذه لا يفعلها إلا نبي؛ لأنه ليس هناك مصلحة، هذا الخلق لا يفعله إلا نبي صلى الله عليه وسلم. وكذلك أتباع الأنبياء يفعلون ذلك: (وَعِبادُ الرَّحمنِ الَّذينَ يَمشونَ عَلَى الأَرضِ هَونًا وَإِذا خاطَبَهُمُ الجاهِلونَ قالوا سَلامًا) {الفرقان: ٦٣}. هذه الأفعال فُرقان أنهم أهلُ حق، وليسوا أصحاب مصالح، أنهم أهل دين، ويفعلون ذلك ابتغاء مرضاة الملك سبحانه وتعالى.

- (فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧)) {البلد: الآيات ١٣-١٧}

المفسرون تعجبوا: كيف يفعل هذا أولًا ثم بعد ذلك يكون مؤمنًا؟ فالطبيعي أن يكون مؤمنًا أولًا. فبعض المفسرين قالوا إن المقصود هنا: كمال الإيمان، أي أن الإنسان لن يستقر على الإيمان ولن يثبت في الإيمان ولن يصل إلى كمال الإيمان إلا بهذه الأفعال، بالبذل في المضائق وبالصبر في الابتلاءات.

- (ثُمَّ كَانَ): أي ظل يترقى في مدارج الإيمان حتى وصل إلى قمة الإيمان، وأصبح في زمرة المؤمنين.
- (ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) {البلد: ١٧}: الإيمان يحتاج إلى صبر؛ لأنه هناك ابتلاءات، وهناك أوقات ضيق، هناك كبد سيمر على الإنسان.. فهو لا يحتاج إلى الصبر فحسب، بل يصبر ويُصبِّر نفسه ويتصبر بغيره.

(وَتَوَاصَوْا): تفاعل بين الاثنين، فأنا أوصيك بالصبر وأنت توصيني بالصبر، إذًا يصبِر ويُصبِّر غيره ويتصبر بغيره.

ولا يتواصوا بالصبر فقط، بل يتواصوا بالمرحمة أيضا، فهناك أوقات نحتاج فيها إلى أن نرحم بعضنا بعضًا. من العجيب جدًا أن نجد -في أوقات الاستضعاف- المسلمين يطعنون في بعضهم البعض، نحن أحوج ما نكون إلى رحمة بعضنا البعض، ألا يكفينا ما يأتينا من العدو فتَطعن في ظهري وأُطعَن من وجهي؟

والعجيب أيضًا أن هذا الزمن زمن صعب، زمن مجاعات، مسغبة أو تعذيب، فالمتوقع أن الإنسان في هذا الزمن يكتسب خشونة في الصفات. فهو يُعذَّب ولا يوجد نقود وهناك مجاعات، فتتغير أخلاقه حسب الظروف، ويصبح خشنًا. فيقول الله سبحانه: لا، (وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ) {البلد: ١٧} لا تجعل الظروف تغير أخلاقك، لا تترك ضغط الظروف يغير لك أخلاقك .

يُذكَر عن بعض السلف يقول: فلان حسن الخلق، فما زال به الناس حتى ساء خُلقه. ظل الناس يضغطوا عليه حتى أصبح خلقه سيئًا.

ابن حبان (٣٥٤ هـ)، صحيح ابن حبان ٢٨٨ • أخرجه في صحيحه

العجيب أنه في وسط كل هذه الظروف يقول الله: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ {البلد: ١٧} فيجب أن يحافظ الإنسان على الأخلاق مهما تغير الناس من حوله، مهما آذاه الناس يحافظ على أخلاقه. نسأل الله أن يرزقنا حسن الخلق.

- ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨)﴾ {البلد: الآيات ١٧-١٨}
- ﴿أولئك﴾: تدل على الرفعة.
- ﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾: قيل الميمنة: هي الجنة، وقيل الميمنة: أن يأخذ كتابه بيمينه.

وقيل الميمنة أي: اليُمن، فحياتهم فيها بركة، بالرغم من وجود الضيق، وبالرغم أن هناك مسغبة، وبالرغم أن هناك تعذيب: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ {البلد: ٢} ، ورغم أن هناك كَبَد؛ هنا يظهر اليُمن وتظهر البركة فجأة. لماذا؟ لأنه عَمِل أعمالًا صالحات وصبر عليها.

إذًا كل الناس تُبتلى لكن المؤمن معه شيء ليس مع الكافر، قال الله عز وجل: ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ {النساء: ١٠٤} أنت معك شيء ليس معه ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ {النساء: ١٠٤} فإياك أن تُضيِّعه، فتصبح مثلهم. إياك أن تُضيِّع الرجاء وتكتفي بالألم.

﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ لكن أنتم ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ {النساء: ١٠٤}.

علاقتك بالله تجعلك تتجاوز الألم ولا تبصر الألم ولا تشعر بالألم، ويتحول الألم إلى لذة! فبالرغم أنك -في الحقيقة- في كَبَد، وفي ألم، وفي معاناة لكن أنت لا تشعر به. هذا هو اليمن: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ {البلد: ١٨} .

- ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ {البلد: ١٩} قيل المشأمة هي النار، أو يأخذ كتابه بشماله، أو الشؤم والضنك و العياذ بالله.
- ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾ {البلد: ٢٠} من لطائف بعض اللغويين أنهم قالوا: إن صيغة (مَفعَلة) تدل على الاستمرار، بمعنى أن المؤمن سيظل في ميمنة في الدنيا إلى القبر والقيامة والجنة، اليُمن مستمر معه. أما الآخر فالشؤم مستمر معه في الدنيا وفي القبر وفي القيامة وفي النار والعياذُ بالله ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾ {البلد: ٢٠}.

وهذا ختام عجيب جدًا تُختَم به السورة، فكأن الله يقول لنا: أن الإنسان سيظل في كَبَد، فكلمة (في كَبَد) تدل على أن الإنسان مُحاط بالكَبَد، والحل كي يخرج الإنسان من هذا الكَبَد أن يقتحم العقبة؛ حتى يدخل الجنة، الذي لن يقتحم العقبة سيظل في الكَبَد فتُغلَق عليه النار.

(عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ) {البلد: ٢٠} النار تُغلق عليه، فيظل في الكَبَد إلى ما لا نهاية والعياذُ بالله.

إذًا الإنسان يعيش في كَبَد، ولا حل للخروج من الكَبَد إلا بالاقتحام، والاقتحام هو بذل الطاعات في أوقات الابتلاءات، فيَمُنُّ الله عزَّ وجل عليه فيدخل الجنة، وإلا –والعياذُ بالله– يظل في هذا الكَبَد حتى تُغلَق عليه النار، وإذا أُغلِقَت عليه النار –بالنسبة للكافر– يظل في هذا الكَبَد أبدًا خالدًا فيها والعياذُ بالله.

فختام السورة (عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ) {البلد: ٢٠} أن هناك أناس –والعياذ بالله– اختاروا أن يعيشوا في الكَبَد إلى ما لا نهاية.

نسأل الله عزَّ وجل أن يرزقنا اقتحام العقبات وبذل الطاعات في أوقات الابتلاءات وأن يستعملنا لنُصرة دينه.

أقولُ قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم. سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوبُ إليك.